مجلة الباحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية
ISSN 2170-0370/E-ISSN 8127-2710
المجلد 14،العدد01 – 2023 / ص ص:172- 187

الحياة الاجتماعية في السودان الغربي خلال القرن 16م

Social life in the Western Sudan

حفيظة معمر *
جامعة الوادي (الجزائر)،Hafida.maa17@gmail.com

تاريخ الاستلام : 2022/12/09 ؛ تاريخ القبول : 2023/02/05 ؛ تاريخ النشر : 2023/01/31

الملخص

تتناول هذه الدراسة الحياة الاجتماعية في بلاد السودان الغربي التي عاش بها العديد من القبائل الأهلية والوافدة، حيث ستتناول الدراسة النمط الذي يميزها والممارسات الحياتية تختص بها، بغرض ابراز أن هذه المجتمعات كانت على درجة من الرقي الحضاري الذي تماشى في العصور الوسطى والحديثة.

الكلمات المفتاحية: السودان الغربي، جني، تنبكت، جاو

Abstract

This study deals with social life in western sudan which lived by many civil and expatriate tribes, where the study will address the style that distinguishes it and life practices specialize in, it In order to highlight that these societies were on a degree of civilization, Which is in the middle and modern times.

Keywords: Western Sudan, Jini, Tanbaktu, Gaw.

* حفيظة معمر

مقدمة :

لطالما اهتمت جل الدراسات التاريخية بالجانب السياسي والعسكري لبلاد لسودان الغربي، وهذا بسبب ارتباطه برجال الدول وبطولاتهم العسكرية، وأهملت الجوانب الأخرى الاجتماعية والثقافية وكذا الاقتصادية هذه الجوانب التي لا تقل أهمية عن السياسة والانتصار العسكرية، ومن هنا جاء اهتمامي بالناحية الاجتماعية لساكني المنطقة التي كان لها نمط يميزها وممارسات حياتية تختص بها، للغوص في هذا الموضوع والتعرف أكثر على الحياة الاجتماعية بها، وبالتالي ابراز أن المجتمعات التي كانت بالسودان الغربي كانت على درجة من الرقي الحضاري تتماشى مع ذلك الوقت.

قامت في هذه البلاد العديد من الممالك والامارات منها: مملكة غانا الوثنية، ومملكة مالي الاسلامية، ومملكة سنغاى، ظهرت بها العديد من الحواضر والتي كان لها نمطها المعماري الخاص بها، وعاشت بها قبائل كثيرة أهلية ووافدة، وكانت لها نشاطاتها اليومية التي تمارسها لسد حاجتها اليومية.

فجاءت الإشكالية كما يلي: كيف كانت الحياة الاجتماعية ببلاد السودان الغربي؟

هذه الاشكالية تتفرع إلى الأسئلة التالية:

1- ما المقصود ببلاد السودان الغربي وأين تقع؟
2- ماهي أهم حواضر السودان الغربي؟
3- ماهي أهم قبائل السودان الغربي وكيف كانت حياتهم اليومية؟

وللاجابة على هذه الاشكالية تم تقسيم الدراسة إلى مقدمة ومحورين وخاتمة.

I.1- اصل تسمية وموقع السودان الغربي:

قبل الاطلاع على أحداث جرت في منطقة ما لابد أن نعرف المنطقة الذي جرت عليها؛ أصل تسميتها جغرافيتها، باعتبارها المسرح الذي جرت عليه هذه الأحداث التي بطبيعة الحال لا تقف جامدة تجاه النشاطات الإنسانية التي تجري عليها بل تؤدي دورا مهما بما توفره من فرص للتفاعل بين ساكينها وبالتالي سيكون حتما له انعكاسات على حياتهم.

اصطلح الجُغرافيون، والمُؤرخون، والرحالة العرب المُسلمون في العصور الوسطى على تسمية المناطق الواقعة جنوب الصحراء الإفريقية الكبرى وشمال خط الاستواء اسم بلاد السودان، هذه تسمية السودان التي استنبطوها ربما من لون البشرة (دائرة المعارف الاسلامية، صفحة 327)، فالاصطخرى (ت340هـ) وصف الشعوب التي سكنت المنطقة بـ: "..... **أشد الأمم سوادا....**" (الاصطخري، 1961، صفحة 44) ووصفهم ابن الوردي أنهم: "...**شديدو السواد** ". (الوردي، 1970، صفحة 135)

أما عن موقعها فأورد الاصطخري(ت340هـ): "**.....إن بلاد السودان الذي في أقصى المغرب على البحر المحيط بلد مكنف ليس بينه وبين شيء من المماليك اتصال غير أن حدا له ينتهي إلى البحر المحيط وحدا له بينه وبين أرض المغرب وحدا له بينه وبين أرض مصر على ظهر الواحات، وحدا له ينتهي إلى برية**"،

(الاصطخري، 1961، الصفحات 10-11) وحددها البكري(عاش في القرن 5هـ/11م) :"... **أول بلاد السودان....جبال ورم العظيمة متصلة من الغرب إلى الشرق .....**"، (البكري، 1992، صفحة 837) أما القلقشندى(**ت1418م**) فقد حددها بنفس الحدود تقريبا (القلقشندي، صفحة 273)

أما في بداية العصور الحديثة القرن العاشر هجري/السادس عشر ميلادي حددها الحسن الوزان بقوله: "**.... أرض السودان، فيبتدئ شرقا بمملكة كاوكة، و يمتد غربا إلى مملكة ولاتة، ويتاخم في الشمال صحراء ليبيا، وينتهي جنوبا إلى البحر المحيط في مواقع لا نعرف عنها غير ما يرويه التجار الذين يأتون إلى مملكة تنبكتو[تنبكت]، وهو كثير**" (الوزان، 1983، صفحة 29)

كما حدد موقع الممالك السودانية الخمس عشرة التي زارها أنها: "**تمتد هذه الممالك الخمس عشرة المعروفة كلها لدينا الآن على طول ضفتي النيجر وروافده، وتقع بين قفرين عظيمين يبتدئ أحد هما عند نوميدياو(يقصد الصحراء الكبرى) ينتهي في هذه البلاد (أي بلاد السودان)، والآخر في الجنوب يمتد إلى البحر المحيط [المحيط الأطلسي]**". (الوزان، 1983، صفحة 161)

وبما أن المدلول اللفظي لكلمة السودان قد يعنى الشعوب السوداء البشرة فإنه من المرجح أن الكتّاب والمؤرخين والجغرافيين العرب في العصور الوسطى وكذلك الأوروبيون في العصور الحديثة قد حصروا هذه التسمية في الجزء الشمالي من المناطق الإفريقية التي يسكنها السود وهي: منطقة حزام السفانا أو شبه الصحراوية التي تغلغل فيها الإسلام، (دائرة المعارف الاسلامية، صفحة 327) وعليه فحدود السودان تمتد من المحيط الأطلسي غربا إلى البحر الأحمر شرقا، ومن الهامش الجنوبي للصحراء الإفريقية الكبرى شمالا حتى المنطقة الاستوائية جنوبا.

أما في الفترة المعاصرة فقد تم تقسيم هذه المنطقة إلى ثلاث مناطق هي : السودان الشرقي، والسودان الأوسط، والسودان الغربي (دائرة المعارف الاسلامية، الصفحات 327-328) فأصبحت المنطقة تحدد بالشكل التالي:

1- **السودان الشرقي:** ويمتد من البحر الأحمر شرقا حتى دار فور غربا ويضم : الحوض الأعلى والأوسط لنهر النيل (عمر، 1965، صفحة 132) هذا القسم أطلق عليه العرب بين القرنين التاسع والثاني عشر للميلاد اسم بلاد الزنج إلا أن كلمة السودان كانت تشمله أيضا (زبادية ، 1989، صفحة 11)

عبد القادر زبادية: **مملكة سنغاي في عهد الأسقيين 1493 م – 1591م**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، د.ت.ن، ص: 15.

2- **السودان الأوسط:** وهو يشمل المناطق المحيطة ببحيرة تشاد. (زبادية ع.، صفحة 15)

3- **السودان الغربي:** وهو يشمل حوض نهر السنغال ونهر غامبيا والمجرى الأعلى لنهر الفولتا والحوض الأوسط لنهر النيجر (دائرة المعارف الاسلامية، صفحة 330)

وبما أن موضوع هذه الدراسة هو هذا القسم الأخير الذي يشكل جزءا من غرب إفريقيا فحدود هذه المنطقة غربا المحيط الأطلسي، أما الحدود الشرقية فتتماشى مع الضفة الشرقية لنهر النيجر وذلك أثناء مروره بدولة النيجر الحالية واتجاهه جنوبا صوب المحيط الأطلسي

مخترقا دولة نيجيريا الحالية (مطير، 2005، الصفحات 32-33)، أما عن الموقع الفلكي للمنطقة فهو ينحصر بين خط طول 10 درجة شرق خط غرينتش و20 درجة غربه ودائرتي: عرض 10درجة و 20 درجة شمال خط الاستواء (مطير، 2005، صفحة 32)

وعليه يمكن تحديد منطقة الدراسة حسب التسميات العصرية على النحو التالي: موريتانيا، غامبيا السنغال، مالي، والأجزاء الغربية والوسطى من النيجر، وبوركينافاسو (مطير، 2005، صفحة 35)

وبعد معرفة المقصود ببلاد السوادان الغربي وموقعها، سننتقل إلى عرض الحياة الاجتماعية بها.

ا.2- الحياة الاجتماعية للسودان الغربي:

1- حواضر السودان الغربي.

إن الظروف الحضارية وطبيعة الحياة كما يجب فهمها في بلاد السودان الغربي لا تعني كل البلاد، وإنما تعني مراكز الاستقرار المدني أي مراكز الاستقرار في المدن الهامة وما يتصل بها من ضواحي حيث أن معظم جهات المنطقة باستثناء مواقعها على الآبار حول نهر النيجر وروافده، وكذا البحيرات الواقعة عند منحناه هي عبارة عن صحاري تنعدم بها التجمعات السكانية، ولا يرتادها إلا الرعاة من الطوارق والسودانيين لفترة محدودة قد تكون أياما معدودات فقط .

ازدهرت الحياة بشكل بارز في المراكز الحضارية، حيث المؤسسات الإدارية والاجتماعية كما كثر السكان بها وتبادلوا البضائع والخبرات والمعارف.

وعليه فإن الحديث عن تلك المراكز يبدو من الضروري بما كان لأنه يطلعنا على دور تلك المراكز في حياة البلاد، كما يعمق النظر للحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فيها (زبادية ع.، الصفحات 99-100) ومن أهم تلك المراكز الحضارية:

أ – تنبكت:

أوردت الكتابات السودانية التي أرخت لتنبكت أنها تأسست آواخر القرن **5 هـ / 11 م**، على يد قبائل مَقشرنْ الطارقية، (بابير، 2001، صفحة 51) وهم قوم من البدو قدموا البلاد لرعي أغنامهم فكانوا يصيّفون على ضفاف نهر النيجر في قرية أمظغ، و في الخريف يرجعون إلى أوطانهم في(آروان) ، (السعدي، 1964، الصفحات 20-21) ومع مرور الوقت استقروا في مدينة تنبكت، أما عن الأسباب التي أدت بالطوارق لاختيار هذه المنطقة أنه توجد بها الكثير من الآبار ذات المياه العذبة أدت بالتدرج إلى مكان يتلاقى به التجار ويقيمون حوله للراحة أحيانا دائما، ومن ثم تحول المكان إلى سوق للتبادل التجاري بين تجار الشمال والجنوب (زبادية ع.، صفحة 100) وهذا التبادل بطبيعة الحال لم يقتصر على تبادل البضائع فحسب بل تعداه إلى حمل الأفكار والحضارة الناشئة حول البحر الأبيض المتوسط .

أما عن سبب التسمية فالشائع أن هذه القبائل عندما كانوا يرتحلون يتركون أدواتهم في ذلك المكان عند امرأة تدعي تنبكت ومن ثم أطلق هذا الاسم على هذه المنطقة، وعن نطق الاسم تنبكت ورسمه ورد بعض الخلاف بين المصادر والمراجع التاريخية التي أرخت لها فالسودانية كتبتها تنبكت كتاريخ الفتاش (كعت، 1964، صفحة 106، 109، 158) وتاريخ السودان (السعدي، 1964، صفحة 21) ونيل الابتهاج (التنبكتي، 2004، صفحة 20،314) وكفاية المحتاج (بابا، 2002، صفحة 505) لتنبكتي وغيرهم، بينما ضبطها كلا من الرحالين الحسن الوزان (الوزان، 1983، الصفحات 165-166) وابن بطوطة (بطوطة، صفحة 451)باسم تنبكتو.

أما بعض المستشرقين فقد كتبوها بالميم تمبكتو أمثال: توماس أرنولد، (توماس، 1970، صفحة 355) وقلدت العديد من المراجع العربية الحديثة ما كتبته الأقلام الغربية، إلا أن ما كتبته المصادر السودانية هو الصحيح وذلك باعتبار أنهم من أهالي المنطقة وأدرى بصحة نطق اسمها ورسمه لذا كتبت في تنبكت.

أما عن موقعها فهو على الحافة الجنوبية للصحراء الإفريقية الكبرى في منطقة نهر النيجر عند دورانه وتقوسه من الناحية الشمالية إلى الناحية الجنوبية(شلبي، 1990، صفحة 195)وقد حدد الحسن الوزان هذا الموقع في زمنه على بعد اثني عشر ميلا من أحد فروع النيجر(الوزان، 1983، صفحة 165)

بدأت أهمية وشهرت تنبكت تزداد بالسودان الغربي كمركز ثقافي بالإضافة إلى كونها مركزا تجاريا بعدما تقلصت أهمية مدينة ولاتة إذ قال السعدي: << **وكان التسوق من قبل في بلد بير[ولاته] ، وإليه يرد الرفاق من الآفاق وسكن فيها الأخيار من العلماء والصالحين وذوي الأموال ... ثم انتقل الجميع إلى تنبكت قليلا قليلا حتى استكملوا فيه ،وزيادة مع جميع قبائل صنهاجة بأجناسها فكانت عمارة تنبكت خراب بير [ولاتة]** ...>> (السعدي، 1964، صفحة 21) ففي أوائل القرن العاشر للهجرة السادس عشر للميلاد، فقدت ولاتة أهميتها نهائيا لصالح تنبكت والدليل على ذلك ما قاله الحسن الوزان الذي زار المدينتين في أوائل القرن العاشر للهجرة /

السادس عشر للميلاد ووصف ولاتة بأنها: << **مملكة صغيرة خاملة بالنسبة لسائر ممالك السودان ، فليس لها من الأماكن المسكونة سوى ثلاث قرى كبيرة وأكواخ متفرقة بين حدائق النخيل ... التجار تركوا ولاته شيئا فشيئا منذ عهد سني علي ... وذهبوا إلى تنبكتو[تنبكت] وكاغو [جاو] بحيث إن أمير ولاته أصبح فقير لا سلطة له عليها ... ويؤدي .....الخراج إلى ملك تنبكت (الأسكيا الحاج محمد)**>> (الوزان، 1983، الصفحات 161-162)

وصف الحسن الوزان الحياة في تنبكت فقال أن الوالي على تنبكت الذي كان من قبل الأسكيين في الفترة التي زارها فيها يتوفر لديه << **قرابة ثلاثة آلاف فارس وعدد لا يحصى من الراجلين الحاملين لقسي المصنوعة من خشب (الفُنْوي) البرية تمرق منها سهام مسمومة** >>(الوزان، 1983، صفحة 166)كان يحارب بهم أعداءه من جيرانه ومن يمتنع عن أداء الخراج إليه (الوزان، 1983، صفحة 167)

كما وصف دُورها وقال أنها عبارة عن أكواخ مبنية بأوتاد مملوطة بالطين ومسقوفة بالتبن وهذا باستثناء بناءين بها بنيا بالحجر المركب بالطين والجير وهما مسجد وقصر كبير على يد مهندس أندلسي، كما ذكر أن لسان السكان لغة سنغي (زبادية ع.، صفحة 102)أما العربية فكانت لغة الثقافة والإدارة كما يتحدث بها الناس في السوق كلغة شائع استعمالها.

أما الحياة الاقتصادية بالمدينة فأورد الوزان بأنها مزدهرة، ففيها كثير من الدكاكين المملوءة بالمنسوجات والكتب (الوزان، 1983، صفحة 162) ولأسواق التي تعرض فيها البضائع القادمة من بلاد البربر وكذا من أوربا عن طريق بلاد المغرب، ومن أن أنفق شيء في أسواقها على ذلك العهد كانت الكتب، الملح، والخيول، وأغلى بضائعها الكتب المستوردة من بلاد البربر<< **تباع أيضا مخطوطات كثيرة تأتي من بلاد البربر وتدر أرباحا تفوق أرباح سائر البضائع** >> (الوزان، 1983، صفحة 167) أما عن مقاعد العلم والثقافة في هذه المدينة، فذكر أنه يعيش فيها القضاة والفقهاء والأئمة والرعاية التي كان يوليها لهم ملك البلاد لينصرفوا لهذه المخطوطات كلما أتتهم من الشمال الإفريقي << **وفي تنبكتو[تنبكت] عدد كثير من القضاة والفقهاء والأئمة، يدفع الملك إليهم جميعا مرتبا حسنا، ومعظم الأدباء كثيرا** >> (الوزان، 1983، صفحة 167)وعبارات الحسن الوزان هذه تعكس مدى ازدهار الحياة الثقافية به.

ونظرا لشهرت تنبكت التجارية والثقافية في بلاد السودان الغربي جعل الحسن الوزان يعتبرها العاصمة السياسية لمملكة سنغي في حين أن العاصمة هي مدينة جاو.

ب – جني :

تقع مدينة جني في الجنوب الغربي من تنبكت بدولة مالي الحالية، ذكر الحسن الوزان الأسماء المختلفة التي أطلقت على هذه المدينة فالتجار الأفارقة سموها كناوة أما البرتغاليون ومن لهم خبرة بهذه المناطق بأوروبا سموها غينيا، والأهليون (يقصد بهم أهل البلاد) سموها جني(الوزان، 1983، صفحة 162)وهذا الاسم الأخير الذي ورد عند المصادر السودانية التي أرخت للمنطقة (السعدي، 1964، صفحة 12)و المأخوذ به في هذه الدراسة .

تعددت الآراء حول تاريخ تأسيس مدينة جني فبعضهم يحدد ذلك في أواسط القرن الثاني للهجرة /الثامن للميلادي (السعدي، 1964، صفحة 12) والبعض الآخر يذكر أنها تأسست في القرن 5 هـ / 11 م (توماس، 1970، صفحة 355)

وصف الحسن الوزان المدينة بأنها عبارة عن قرية واحدة كبيرة غالب أبنيتها من أكواخ مملوطة الحيطان بالطين ومغطاة بالتبن (الوزان، 1983، صفحة 164) كما نقل صورة عن الازدهار التجاري فذكر البضائع الواردة إليها من المشرق والمغرب وأوروبا التي كانت تصلها في الغالب عن طريق تنبكت حيث تسافر إليها يوميا القوارب المحملة بالبضائع عن طريق النيجر(الوزان، 1983، الصفحات 163-164)كما أشار إلى الانتعاش الثقافي الذي كانت عليه المدينة.

تختلف مدينة جني عن مدينة تنبكت في نقطة مهمة، وهي أن الثانية ولدت مسلمة في حين الأولى ابتدأت في الكفر في أوائل القرن **2 هـ/8م**، واشتهرت كمركز تجاري مهم بالمنطقة المدروسة، وفد إليها التجار من كل حدب وصوب، ومع بداية وفود التجار المسلمين للمنطقة الذين حملوا عقيدتهم مع سلعهم بدأ الإسلام يدب في مدينة جني وينتشر رويدا رويدا، وأقام بها كثير من العلماء يُعلمون الإسلام وينشرون مبادئه وعند تمام القرن **6 هـ/13م**، أحسّ ملكها الوثني **(كنبر)**، أن الإسلام يحيط به من كل جانب وما لهذا الدّين من مبادئ راقية وفكر جليل فعزم على اعتناقه (السعدي، 1964، صفحة 11،12)و يحكي السعدي قصة إسلامه فقال: « **... ولمّا عزم على الدخول في الإسلام أمر بحشر جميع العلماء الذين كانوا في أرض المدينة فحصل منهم أربعة آلاف ومائتان عالما [مائتا عالم] فاسلم على أيديهم وأمرهم أن يدعو الله تعالى بثلاث دعوات لمدينة تلك [لتلك المدينة] وهي: أن كلّ من هرب إليها من وطنه ضيقا وعسرا أن يبدلهما الله له سعة ويسرا حتى ينسى وطنه، وأن يعمرها بغير أهلها أكثر من أهلها، وأن يسلب الصبر من الواردين إليها للتجارة في ذات أيديهم لكي يملوا منها فيبيعونها لأهلها بناقص الثمن فيربحون بها، فقرءوا الفاتحة على هذه الدعوات الثلاثة فكانت مقبولة** » (السعدي، 1964، صفحة 12،13)

أوردت المراجع التاريخية الحديثة أن مدينة جني كانت تحتل المركز الثالث من حيث الأهمية التجارية وذلك بعد كل من تنبكت و جاو، أما في الميدان الثقافي فقد تأتي في المرتبة الثانية من حيث المكانة التي تحتلها في هذا المجال في المنطقة المدروسة مباشرة بعد تنبكت التي تحتل المرتبة الأولى (شلبي، 1990، صفحة 6)

استمر الازدهار الذي كانت عليه مدينة جني طيلة عهد الأسكيين، وهذا ما عكسته المصادر السودانية التي أرخت لها.

جـ – جاو: مدينة جاو تعد من أشهر مدن السودان الغربي وهي تقع حاليا ضمن الحدود السياسية لدولة مالي على الضفة اليسرى لنهر النيجر يتصل بها وادي تلمسي tilimsi الذي ينحدر إليها من قلب الصحراء (اسماعيل ، 1982، صفحة 317) كانت العاصمة السياسية لمملكة سنغى بلغت في أيام الاسكيين أقصى ازدهارها، فقد وصفها الحسن الوزان بالمدينة العظيمة (الوزان، 1983، صفحة 169) في حين وصف تنبكت بالمدينة فقط (الوزان، 1983، صفحة 165)ثم أضاف بأن جاو بها قصور الملك، ورؤساء دولته ولذا فهي من أجمل المدن في السودان الغربي كله.

تحدث الحسن الوزان عن نشاط المدينة الاقتصادي المتمثل في كثرة الأسواق، و تنوع السلع التي ترد إليها من أوربا و بلاد البربر (الوزان، 1983، صفحة 169) وتجعلها المراجع الحديثة في المرتبة الثانية بعد تنبكت من حيث الأهمية التجارية، فالمدينة لم تبرزفي الجانب الثقافي كسابقتيها تنبكت و جنى، و ذلك ربما لأنه كان يسكنها التجار ورجال الدولة أكثر من طلاب العلم والأساتذة في فترة حكم الأسكيين.

بالإضافة إلى هذه المراكز الكبرى توجد مراكز أخرى صغيرة مثل: وَلاَتَة، مالي، كَبْرَة، أغَدَسْ والحياة فيها كانت صورة مصغرة عن الحياة في المدن الكبرى.

2- التركيبة البشرية للمجتمع السوادني:

تكون المجتمع السوداني من الأفارقة السود السكان المحليين، و الوافدين الأجانب بربر كانوا أو عرب الذين توافدوا إلى هذه المنطقة عن طريق الهجرات المتتالية لا سيما من الشمال الإفريقي ومن الشرق نحو الغرب (Raymond, , 1961, p. 443)إذ وجد سكان الجزيرة العربية طريقا للهجرة إلى السودان الغربي ألا وهو برزخ السويس، ومنه تمكن العرب من التوغل في السودان الغربي عن طريق المغرب العربي أو عن طريق وادي النيل، كما أن الصحراء الكبرى لم تكن قط حاجزا يحُول دون بلوغ العرب أو البربر بلاد السودان لاسيما وأن الصحراء لم تكن جافة وقاحلة في الماضي كما هي عليه اليوم (قداح، الصفحات 13-14) ومنه يمكن تصنيف أبرز القبائل التي قامت بأدوار متعددة في المنطقة كما يلي:

أ/القبائل السودانية(المحلية):

تعد قبائل السوننك من أبرز القبائل السودانية بالمنطقة، وهم الذين شكلوا تاريخيا عصب مملكة غانة، تتميز هذه القبائل بصفات جسمانية خاصة وتقاليد اجتماعية معينة، انتشر نفوذهم في أجزاء واسعة من السودان الغربي وامتدت مضاربهم من تنبكت شرقا حتى بلاد السنغال حاليا غربا (مطير، 2005، صفحة 39)امتزج السوننك مع القبائل الوافدة مما أدى إلى تغيير بعض الشيء في ألوانهم حتى أن قبائل الولوف يطلقون على قبائل السوننك المقيمين في حوض السنغال اسم **تشيركول** أو **سراكول**، وتعنى هذه التسمية عند الولوف الرجال الحمر أو الناس الحمر (مبروك، التاريخ السياسي والاقتصادي لإفريقيا فيما وراء الصحراء من نهاية القرن الخامس عشر إلى بداية القرن الثامن عشر، 1999، صفحة 23)تضم مجموعة السوننك فروعا مختلفة؛ اشتهرت بأسماء متنوعة تبعا للأماكن التي قامت بها أو تبعا لأسماء العشائر التي برزت من بينها أو بحسب تسمية جيرانهم لهم. (إبراهيم، 1967)

و نتيجة الامتزاج المُبكر بين السوننك ومسلمي الشمال الإفريقي الوافدين اعتنق السوننك الإسلام وقاموا بنشره في بلادهم. (مطير، 2005، صفحة 40)

كما عاشت بالمنطقة أيضا قبائل الصوصو الوثنية التي كانت خاضعة لمملكة غانة عند ما كانت في عزّ ازدهارها، وما إن سقطت هذه المملكة تحت ضربات المرابطين حتى انقلبت ضدها (الرحمان، 2000) واحتلت عاصمتها كومبى صالح عام **1203** (إبراهيم، 1967، صفحة 67) إلا أن طموح قبائل الصوصو في التوسع لم يدم وسرعان ما ظهرت قبائل سودانية أخرى هي قبائل الماندينجو مؤسسو مملكة مالي الإسلامية التي قضت على طموحاتهم السياسية (الهادي، 1991، صفحة 22)

أما عن قبائل الماندينجو أو الماندينغ أو المالنكا أو الماندى وهي تسميات لجنس واحد (مطير، 2005، صفحة 41) كانت مواقع انتشارها في أعالي نهري السنغال والنيجر إلى المحيط الأطلسي وقد انتشرت لغتهم إلى ما وراء حدود بلادهم (قداح، صفحة 12).

كما عاشت بالمنطقة أيضا قبائل البمبارا وهي إحدى فروع الماندينج (قداح) التي عاشت في المنطقة المعروفة حاليا بموريتانيا، واستمرت على وثنيتها رغم انتشار الإسلام في تلك المنطقة منذ عهد المرابطين (توماس، 1970، صفحة 358)

كما عاشت بالمنطقة قبائل الولوف المنتشرة في حوض السنغال الأدنى ويتميز هذا الشعب بقامته الطويلة وشعره الأسود الفاحم وذكائه المتوقد وقبائل السيرر و التكرور امتدت مضارب هذه القبائل على طول ضفتي

السنغال (قداح، صفحة 18)، كما عاشت بالمنطقة قبائل الموسي أو الموشي (نبيلة، 2007)وأقامت مملكة وثنية في منحنى نهر النيجر.

قبائل السنغي التي يرجع أصلها إلى دندى شمال الداهومي(بينين حاليا) صعدت مع مجرى نهر النيجر حتى وصلت منطقة كوكيا الوفيرة الخيرات فاستقرت حولها (الغربي، 1982، صفحة 53) ينقسم هذا الشعب السراكولي إلى فريقين هما الصيادون والفلاحون كان الصيادون يشنون الغارات اللصوصية على الفلاحين، (الألوري، 1965، صفحة 156) خضعت قبائل السنغي لقبائل لمطه (أو لمته) وهي إحدى القبائل البربرية التي وفدت إلى هذه المنطقة في القرن السابع ميلادي، ويعتبر مكلها الأول ضياء بن قس أو ضياء اليمن(أوزا الأول) هو الذي فكر في إحداث هذه الدولة اعتنق الملك زا الرابع عشر في تلك الأسرة واسمه **زَاكُسْي**(معناه أسلم طوعا بلا إكراه) الإسلام سنة **1009م**، أي قبل مجيء المرابطين وتغلب على القبائل السنغية السراكولية، وفي عام **1010م** استولى على مدينة جاو (الغربي، 1982، صفحة 53) والتي أصبحت منذ ذلك الحين عاصمة لمملكة سنغي ومع ظهور واتساع مملكة مالي الإسلامية وسيطرتها على جميع المدن الواقعة على النيجر، ومنها مدينة جاو دخلت قبائل السنغي تحت حكمها في سنة **1325م** (دافدس، الصفحات 157 -158) ، لكن ما إن حلت سنة **1335م** حتى استطاعت عائلة آل سني وهي فرع من عائلة آل ضياء أوآل زا أن تستقل بسنغي عن مالي وذلك تحت قيادة **سني علي كلن**، وفي عهد **سنى علي بير(حكم في 1465 -1492م)** دخلت سنغي في طور الإمبراطورية حيث وسّع هذا الملك حدود دولته على حساب القبائل المجاورة (زبادية ع.، الصفحات 26-28) إلا أنه ما إن حلت سنة **1493م** حتى استطاعت قبائل السنغي السراكولية أن تستعيد حكمها بقيادة الأسكيا الحاج محمد الكبير الذي أنهى حكم آل سني بثورة قام بها عقب وفاة سني علي مباشرة سنة **1493م**، وبتوليه أصبحت مملكة سنغي أكبر قوة سياسية بالسودان الغربي التي استمرت إلى غاية **1591م**، وبعد هذا التاريخ أخذت قبائل السنغي تنحصر وتتجه إلى ما رواء نهر النيجر جنوبا وشرقا وتختلط بقبائل الحوصا أو الهوسا (الغربي، 1982، صفحة 9)

ب/القبائل البربرية والعربية:

عند دراسة المصادر والمراجع التي أرخت للسودان الغربي وتناولت موضوع القبائل الوافدة إليه، فإنها تورد أن هذه القبائل تنقسم إلى مجموعتين: قبائل بربرية(صنهاجة)، وقبائل عربية.

- **القبائل الصنهاجية:**

هناك اختلاف بين المؤرخين حول أصول هذه القبائل فالمؤرخ المغربي ابن أبي زرع أشار إلى ذلك فقال : « **ذكر محمد بن الحسن بن أحمد بن يعقوب النمراني صاحب كتاب: الإكليل في الدولة الحميرية: أن لمتونه فخذ من صنهاجة و صنهاجة فخذ من ولد عبد شمس بن وائل بن حمير، وأن الملك افريقش ابن ذي**

المنار....بن وائل بن حمير لما ملك حمير خرج غازيا نحو بلاد المغرب، و أرض إفريقية....وخلف بها قبائل حمير، وزعمائها صنهاجة ليردوا البربر عن مشاكاتهم، ويأخذوا أخراجهم، ويربوا بها و صنهاجة باكسر قوم في المغرب من ولد صنهاجة الحمير وقد رد ابن خلدون هذا وأباه، ورفع عمود نسبهم في البربر وتبعهم في ذلك ابن الأزرق وغيره من المؤرخين" (زرع، صفحة 8) هذه القبائل لا تكاد تحصى لكثرتها أما عن مضاربها فقد حددها بالصحراء التي ما بين:"**بلاد البربر، وبلاد السودان**" (زرع) لكن القبيلة التي شكلت جزءا هاما من البنية السكانية للمنطقة المدروسة وخصوصا الأجزاء الشمالية منها هي قبائل الطوارق أو التوارك المسوفية الصنهاجية (السعدي، 1964، صفحة 45) التي لعبت عدة أدوار اقتصادية وسياسية و ثقافية .

- **القبائل العربية:**

عرفت منطقة شمال إفريقيا حوالي القرن الخامس هجري /الحادي عشر ميلادي، هجرة ثلاثة مجموعات قبلية عربية من المشرق العربي هي: قبائل بني حسان من بني معقل، وقبائل بني سليم، وقبائل بني هلال وذلك انتقاما للفاطميين من المعز بن باديس الصنهاجي الذي خلع طاعة الفاطميين، وساروا غربا حتى وصلت طلائع بني معقل إلى سهول المغرب الأطلسية حوالي القرن السادس هجري /الثالث عشر ميلادي (مطير، 2005، صفحة 50) ففي منتصف القرن السادس عشر ميلادي سكنت قبائل بني حسان من بني معقل منطقة الحوض في الجنوب الموريتاني الحالي (زبادية ع.، صفحة 48)وانساحت بذلك إلى السوادان الغربي، وأصبح لها ثقل سياسي واقتصادي الذي يحسب حسابه، وقد تسابقت القوى السياسية التي قامت بالمنطقة على كسب ودِّها من أجل استمرارها في الحكم (مبروك ا.، 1999، صفحة 157)

تكاد تجمع المراجع التي أرخت للسودان الغربي على أن المجتمع السوداني كان طبقيا (Deshamps, 1962, p. 40)لكن هذه الظاهرة لم تكن ذات حدود مغلقة إذ يستطيع الفرد أن يرتقي من طبقة إلى أخرى (زبادية ع.، صفحة 111)ومثال ذلك أن **(علي فلن)** الذي أصبح مستشارا للأسكيا الحاج محمد الكبير وأمين سره، كان في البداية عبدا له (كعت، 1964، صفحة 60)كما حدث أن أحد ملوك سنغي استقبل موكب الحجيج على عادتهم في ذلك الوقت وقبّل يد أحد العبيد الذي كان بينهم فأراد أحد حراس الملك أن يؤدب العبد الذي مد يده للأسكيا دون أن يعرف أنه عبده، فكان هذا سببا في أن الملك أعتق العبد و خمسين نفسا من قبيلة أمه وخمسين نفسا من قبيلة أبيه أيضا، وأسقط عنهم جميع وظائف السلطنة (كعت، 1964، صفحة 60)

كان المجتمع السوداني يتكون من ثلاث طبقات اجتماعية واضحة المراتب في عهد مملكة سنغي هي:

أ/ الطبقة الأولى: هذه الطبقة أقل الطبقات عددا وأكثرها ثروة تضم: الأمراء، والنبلاء، وقادة الجيش، وولاة الأقاليم، تمتعت هذه الطبقة بامتيازات عظيمة دون بقية الفئات، فقد اختصت وحدها بالوظائف الكبرى حتى أن بعض المقاطعات كانت تخضع لأسرة واحدة من الحكام بالإرث (الغربي، 1982، الصفحات 599-600)

ب/ الطبقة الثانية: وهي أكثر عددا من الطبقة الأولى وأقل بكثير من الطبقة الثالثة، وكانت تضم التجار الكبار وعلماء الدَين والموظفين الساميين (زبادية ع.، الصفحات 116-118)

ج/ الطبقة الثالثة: وهي أكثر الطبقات عددا وأقلها اعتبارا في المجتمع وضمّت الجند والحرفيين والعبيد ورعايا الممالك المحمية (زبادية ع.، الصفحات 121-122)وقد كانت تمثِّل طبقة الإنتاج والعمل.

3– الحياة اليومية:

تعرض الحسن الوزان في حديث عن ممالك السودان الغربي لعادات الزنوج، ومعيشتهم في المنطقة فذكر: لباسهم، ومساكنهم، ومعتقداتهم، وعددّ صفاتهم السيئة منها والحسن، ويتفق مع ابن بطوطة من حيث الصفات التي يتميز بها هؤلاء وحبهم للعدالة وشدة رغبة سلاطينهم في إقرار العدل، وتوقيع أشد العقوبات على المسيئين للأمن مما يضفي على بلادهم جوانب من الاستقرار والأمان.

من خلال النصوص التي حملها كتاب وصف إفريقيا يُستشف أن الإسلام قد أثر تأثيرا واضحا على الأغلبية من سكان السودان الغربي لا سيما منها المراكز الحضارية كتنبكت وجني، ومن مظاهر هذا التأثير الذي انعكس على اللباس فيذكر أن النساء << **كن متحجبات**>> (كربخال، 1988، صفحة 198)وأن أهل مدينة تنبكت يرتدون لباسا حسنا و يتثلمون بلثام أبيض (الوزان، 1983، صفحة 163) وهذا فعلا ما أكدته المصادر الأخرى التي أرخت للمنطقة خاصة في جانبه الاجتماعي رغم شحتها في هذا الجانب، وذلك لأن أفكار المؤلفين كما يقول الباحث عبد القادر زبادية كانت متجهة أكثر نحو تسجيل حياة الخاصة وأعمالهم (زبادية ع.، صفحة 127)

أما عن الطعام الذي كان يتناوله السودانيون فإن غذاءهم كان يتكون من الأسماك، واللحم، والحبوب، واللبن، والسمن (الوزان، 1983، صفحة 166)

أما عن المساكن فلقد أعطى الوزان عدة أشكال لها منها المبنية بالطين والمسقوفة بالتبن والبعض مبنى بالحجر، كما ذكر أن قسما من أصحاب القوارب البجعية الذين لا يملكون مساكن فإنهم كانوا يخرجونها في الغالب خلال الليل من نهر النيجر ثم يبيتون فيها أو حولها، كما ذكر أن السودانيين كانوا يتخذون من الخيام مقرا لسكناهم مثل أهالي أغدس الذين << **يعيشون.....في حصر(الخيام) يحملونها على الثيران عند ارتحالهم لينصبوها في مراعي ماشيتهم كما يفعل الأعراب**>> (الوزان، 1983، صفحة 164، 172)

احتفل السودانيون بالأعياد الدينية كالاحتفال بشهر رمضان، وعيدي الفطر والأضحى، والاحتفالات الاجتماعية كالعقيقة والختان، وختم القرآن، والاحتفالات الجماعية بمناسبة خروج الموكب السوداني للحج على غرار ما كان يقع في العالم الإسلامي، شجع على هذا أكثر الميل السوداني الغريزي إلى البهجة والمرح (الغربي، 1982، صفحة 618، 622)

II- الخلاصة و النتائج

- تعود أصل تسمية السودان إلى لون بشرة ساكني المنطقة على حد قول الرحالة والجغرافيين العرب وهي المناطق التي تقع جنوب الصحراء الافريقية الكبرى وشمال خط الاستواء.
- عرفت منطقة السودان هجرات بربرية، وعربية منذ القديم و ازدادت هذه الهجرات عقب دخول الإسلام إلى دول شمال إفريقيا، وأن الصحراء لم تكن في يوم من الأيام حاجزا بين المنطقتين.
- ظهرت ببلاد السودان الغربي العديد من الحواضر وشهدت حركية اقتصادية وثقافية وسياسية.
- عمل ساكني السودان الغربي على توفير حاجياتهم اليومية.
- أوجه دعوة للباحثين في التاريخ للتعمق أكثر في الميادين الاجتماعية والثقافية وكذا الاقتصادية للسودان الغربي.

قائمة المراجع:

- سعيود ا. (2011). القرصنة المتوسطية خلال الفترة الحديثة القرصنة الإيطالية انموذجا. مجلة الواحات للبحوث والدراسات, 150.-
- الماوردي ا. (1970). تتمة المختصر في خبار البشر. بيروت: دار الأمة.
- ابن بطوطة ا. ب. (1995). تحفة النظار في غرائب الأمصار وجائب الأسفار. لبنان: دار الكتاب اللبناني.
- التنبكتي أ. ب. (2004). . نيل الابتهاجبتطريز الدباج. : . القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية.
- ابن زرع ا. ز. (2000). أنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس. . الجزائر: بدون.
- ابن خلدون غ. ا. (2000). العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب، والعجم والبربر ومن عاصرهم. بيروت: دار الفكر.
- المدني ا. ت. (2000). حرب الثلاثمئة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492-1792م. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر.
- العربي ا. . (1982). الصحراء الإفريقية وشواطئها. الجزائر: دار الأمة.
- قنان ج. (1994). قضايا ودراسات في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر. الجزائر: منشورات المتحف الوطني للمجاهد.
- قنان ج. . (1994). قضايا ودراسات في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر. الجزائر: منشورات المتحف الوطني للمجاهد.

- حسن ن. (2007). في تاريخ أفريقيه الإسلامية انتشار الإسلام في السودان الغربي من القرن الخامس حتي القرن التاسع الهجري. دار العرفة الجامعية.
- الهادي م. (1999). التاريخ السياسي والاقتصادي لإفريقيا فيما وراء الصحراء من نهاية القرن الخامس عشر إلى بداية القرن الثا. القاهرة: الدار المصرية اللبنانية.
- قرباش ب. . (2016). السرى الأوروبيون في الجزائر خلال عهد الدايات(1671-1830). الجزائر: جامعة معسكر.
- الدالي ا. م. (1999). التاريخ السياسي والاقتصادي لإفريقيا فيما وراء الصحراء من نهاية القرن الخامس عشر إلى بداية القرن الثا. القاهرة: الدار المصرية اللبنانية.
- الألوري آ. . (1965). موجز تاريخ نيجيريا. :. بيروت: منشورات دار مكتب الحياة.
- التونسي م. ب. ع. (1965). تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان. القاهرة: المؤسسة المصرية.
- التنبكتي أ. ب. (2002). كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الدباج. بيروت: دار حزم للطباعة والنشر.
- الأرواني أ. ب. (2001). السعادة الأبدية في التعريف بلعلماء تنبكت الهبة. ليبيا: جمعية الدعوة العالمية.
- شلبي أ. . (1990). موسوعة التاريخ الإسلامي. : . القاهرة: مكتبة النهضة.
- المنور م. (2009). دراسات عن الجزائر في العهد العثماني القرصنة الأساطيل والواقع. الجزائر: دار القصبة للنشر والتوزيع.
- أرنولد ت. (1970). الدعوة إلى الاسلام. مصر: النهضة المصرية.
- الاصطخري ا. (1961). المسالك والممالك. مصر: دار القلم.
- البكري ا. (1992). المسالك والممالك. تونس: الدار العربية.
- شويتام أ. . (2010). دراسات ووثائق في تاريخ الجزائر العسكري والسياسي الفترة العثمانية 1519- 1830. الجزائر: دار الكتاب العربي.
- شويتام أ. . (2010). دراسات ووثائق في تاريخ الجزائر العسكري والسياسي الفترة العثمانية 1519- 1830 (م 1). الجزائر: دار الكتاب العربي.
- القلقشندي ا. (2000). صبح الاعشى في صناعة الانشا. مصر: المؤسسة الوطنية المصرية.
- قرباش ب. . (2018). الغارات الجزائرية في المحيط الأطلسي 1627- 1631م آيسلندا، يالتيمور. مجلة البحوث التاريخية , -. https://doi.org/https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/49265
- بازل د. (2000). إفريقيا تحت أضواء جديدة. بيروت: دار الثقافة للنشر والتوزيع.
- الهادي م. . (1991). العلاقات بين مملكة مالي الإسلامية وأهم المراكز بالشمال الإفريقي من 7-9 هـ/13-15م. بيروت: دار المحيط العربي.
- سعد الله ف. . (2016). الشتات الأندلسي في الجزائر والعالم. الجزائر: دار قرطبة للنشر والتوزيع.
- الوزان ح. . (1983). وصف افريقيا. بيروت: دار الغرب.
- حجي م. . (2001). المورسكيون والجهاد البحري في المغرب الكبير. الرباط: مطبعة المعارف الجديدة.
- سعيدوني ن. ا. (2013). دراسات أندلسية مظاهر التأثير الأيبيري والوجود الأندلسي في الجزائر. الجزائر: الجزائر.

- وولف ج. ب. (2011). الجزائر وأوروبا 1500-1830. الجزائر: عالم المعرفة.
- حسن . ن. (2007). في تاريخ أفريقيه الإسلامية انتشار الإسلام في السودان الغربي من القرن الخامس حتي القرن التاسع الهجر. بدون: دار العرفة الجامعية.
- سبنسر و. (2006). الجزائر في عهد رياس البحر. الجزائر: دار القصبة للنشر.
- زبادية ع. ا. (2000). مملكة سنغاي في عهد الاسقيين 1493-1591. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
- عنان م. ع. ا. (1998). نهاية الاندلس وتاريخ العرب المنتصرين. القاهرة: مكتبة الخان.
- القبلي م. . (2011). تاريخ المغرب تحيين وتركيب. الرباط: منشورات المعهد الملكي للبحي في تاريخ المغرب.
- طرخان إ. (1967). غانة في العصور الوسطى. مصر: المجلة التاريخية المصرية.
- كعت م. . (1964). تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس. باريس: هوداس.
- بلحميسي م. . (1995). صناعة السفن في الجزائر أيام الأتراك. تركيا: مجلة الدراسات الأثرية آثار.
- Balhmissi , M. (1996). . Marins et marine d'Alger 1518-1830. Algérie: National d' Agér.
- زبادية ع. ا. (1989). الحضارة العربية والتأثير الأوروبي في افريقيا الغربية جنوب الصحراء. الجزا. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.
- عطلي م. ا. (2011). نشاط البحرية الجزائرية في القرن السابع عشر وأثره في العلاقات الجزائرية الفرنسية. الجزائر: المركز الجامعي بغرداية.
- بالطيب ع. ا. (2014). أمير البحر مراد رايس الأصغر الجزائري من الجزائر إلى إيرلندا. الجزائر: دار النعمان للنشر والتوزيع.
- شالر و. . (1982). مذكرات وليام شالر قنصل أمريكا في الجزائر 1816- 1824. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
- Deshamps, h. (1962). l'Afrique Noir précoloniale. :. paris: Presse universitaires de France.
- إميلي ح. . (2006). الجهاد البحري بمصب أبي رقراق خلال القرن السابع عشر. الرباط: كلية الأداب المحمدية جامعة الحسن الثاني.
- Raymond, M. . (1961). Tableau Géographique de L'ouest Africain au Moyen âge. : . Dakar: IFAN.
- بوعزيز ي. . (2009). علاقات الجزائر الخارجية مع دول وممالك أوروبا 1500- 1830. الجزائر: دار البصائر.
- حسن ن. (2007). في تاريخ أفريقيه الإسلامية انتشار الإسلام في السودان الغربي من القرن الخامس حتي التاسع الهجري. بدون: دار مالعرفة الجامعية.
- خلاصي ع. . (2013). الجيش الجزائري في العصر الحديث. الجزائر: منشورات الحضارة.
- أميلي ح. . (2003). العثمانيون والعالم النتوسط. الرباط: منشورات كلية الأداب.
- سي يوسف م. . . (1988). قلج علي باشا ودوره في البحرية العثمانية. الجزائر: جامعة الجزائر.
- برنيا ك. . (1985). طرابلس من 1500 إلى 1850. ليبيا: الدار الجماهرية للنشر والتوزيع.
- بروديل ف. . (1993). المتوسط والعالم المتوسط. لبنان: دار المتخب العربي للنشر والتوزيع.

- الغربي م. . (1982). بداية الحكم المغربي في السودان الغربي. بغداد: دار الرشاد.
- سعد مطير غ. . (2005). الثقافة العربية الإسلامية وأثرها في مجتمع السودان الغربي خلال القرنين العاشر والحادي عشر للهجرة. طرابلس: دار المدار الإسلامي.
- قداح ن. . (2000). . حضارة الاسلام وحضارة أوروبا في افريقيا الغربية. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
- السعدي ع. ا. (1964). تاريخ السودان. فرنسا: هوداس.
- كربخال م. . (1988). إفريقيا. الرباط: دار المعرفة.
- رضوان . ش. (2011). الاحتلال الفرنسي لمنطقة ورقلة وضواحيها) قراءة في الدوافع والمراحل. مجلة الباحث في العلوم الانسانية والاجتماعية, 2(1), 82-91. استرجع في من https://www.asjp.cerist.dz/en/article/99034